حقيقة العبادة

بين

شريعة الله وشطط التصوف

للدكتور

عبد الفتاح إبراهيم سلامة

رحمه الله

أستاذ التفسير بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية

العدد 55-56

مقدمة

إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذ بِاللَّهِ مِـــنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُـــضْلِلْ فَـــلاَ هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْـــهَدُ أَنَّ مُحَمَّـــدًا عَبْـــدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُـــسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَـــقَ مِنْهَـــا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّه الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّه كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحـــزاب: 70، 71]

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَاب اللَّه، وَخَيْر الهَدْي هَدْي مُحمد صَلَّى اللَّه عَلَيْـــهِ وَسَلَّم، وَشَرّ الأُمُور مُحْدَثَاتُهَا، وَكُل مُحْدَثَة بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

ثم أما بعد: فهذه رسالة بعنوان: «**حقيقة العبادة بين شـــريعة الله وشـــطط التصوف**» لفضيلة الشيخ العلامة **عبد الفتاح بن إبراهيم سلامة** رحمه الله تعـــالى

جاءت ردًّا على أحد الكتاب في مقال له بعنوان: «**الحب الإلهي في الشعر النسائي المعاصر**» وقد أبهم الشيخ اسم المردود عليه واسم المجلة ناشرة المقال وهذه من حكمة الشيخ وفقهه رحمه الله.

وقد تضمن ردُّ الشيخ رحمه الله تعالى ردَّ تهويمات وفلسفات الكاتب والتي نسبها لرابعة العدوية[1] ومن ذلك:

- مسألة الفناء في ذات الله.
- والأنس بمطالعة جمال الذات الإلهية الأزلي.
- مذهب رابعة في الحب الإلهي.

ثم أصل الشيخ بعض المسائل من مسائل العقيدة السلفية الصافية ومن ذلك:

- أمر الله لعباده أن يعبدوه خوفا وطمعا، ومدحه لذلك.
- مراتب أهل الخوف من الله جل وعلا.
- الرغب والرهب دعامتا العبادة.
- والمؤمنون ممدوحون بالرغبة إلى اللّه.
- لكل شيء قلبَ، والحب قلب العبادة.

وذكر الشيخ كذلك.

---

[1] رابعة العدوية هي من تابعي التابعين وصفها الإمام الذهبي رحمه الله في «**سير أعلام النبلاء**» بقوله: «**الزَّاهِدَةُ، العَابِدَةُ، الخَاشعَةُ**».

وقال عنها الإمام الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله: «**معروفة بالعبادة مشهورة عند أهل التاريخ والسير أنها امرأة عابدة**» ... «**مشهورة بأنها امرأة عابدة**».اهـ.

وكعادة أهل التصوف في نسبة بعض الصالحين لهم وافتراء الأكاذيب وبعض ما يسمونه خوارق وغيرها ونسبة بعض الكلام الصوفي الذي يتبرأ من أي مسلم، ومن ذلك ما رده الشيخ في هذا المقال والذي –حسب ما قرأت في السير وغيرها عنها- يستحيل أن يكون قد صدر من هذه السيدة الزاهدة.

- معنى الرغب في لغة العرب.

هذه المحاور الأساسية لرد الشيخ رحمه الله تعالى على ذلك الكاتب وقد جعلت كل محور منها عنوانا لما يناسبه من كلام الشيخ وما كان من إضافتي من هذه العناوين وضعته بين [معكوفتين].

وقد صدرت الرد بهذه المقدمة كتعريف موجز بالرد ثم بعد ذلك أضفت الترجمة التي كتبها أخي وصاحبي الشيخ **محمد بن عوض بن عبد الغني** حفظه الله تعالى وسدد خطاه.

وكتب

أبو فارس خالد بن فضل آل زعرب

رفع الملامة بذكر ترجمة العلامة
عبد الفتاح بن سلامة
رَحِمَهُ اللهُ

هو: الشيخ السلفي الدكتور عبد الفتاح بن إبراهيم سلامة.

مولده:

ولد في 22 إبريل 1938م بمدينة طنطا بمصر.

طلبه للعلم:

التحق رَحِمَهُ اللهُ بكلية الآداب -القاهرة-، لكنه لم يستطع أن يكمل الدراسة بها لكثرة ما رأى من عري وتبرج وسفور، وانتشار في ذلك الوقت للأفكار المنحرفة من الماركسية والشيوعية، وقد كانت له مقالات في التحذير من تلك الانحرافات في هذا الوقت.

ثم ذهب للأزهر وقدم أوراقه للدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين، وحصل على الإجازة العليا، ودرجة الماجستير، وتوج دراسته بالحصول على درجة الدكتوراه عام 1979م.

شيوخه:

-بجانب دراسته بالأزهر-.

- العلامة السلفي **مُحَمَّد خليل هراس** -رَحِمَهُ اللهُ- وكان يعد بمثابة الوالد له.
- العلامة السلفي **مُحَمَّد حامد الفقي** -رَحِمَهُ اللهُ-.
- العلامة السلفي **عبد الرحمن الوكيل** -رَحِمَهُ اللهُ-.

أقرانه:

1- العلامة **مُحَمَّد أمان الجامي** -رَحِمَهُ اللَّهُ- وهو من طلبه للتدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، بعد أن سمع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ والتقى به أثناء دراسة الشيخ الجامي بدار العلوم بالقاهرة، وقد كانت بداية التعارف من خلال شيخهما الهــــراس -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

2- العلامة **عطية مُحَمَّد سالِم** -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

3- العلامة **عمر حسن فلاته** –رَحِمَهُ اللَّهُ-.

4- العلامة **مُحَمَّد عبد الوهاب البنا** -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

5- العلامة **ربيع بن هادي المدخلي** -حَفِظَهُ اللَّهُ-.

6- العلامة **علي بن ناصر الفقيهي** -حَفِظَهُ اللَّهُ-.

7- العلامة **سعد ندا** -حَفِظَهُ اللَّهُ-.

8- العلامة **حسن عبد الوهاب البنا** -حَفِظَهُ اللَّهُ-.

9- العلامة **على بن عبد الرحمن الحذيفي** –حَفِظَهُ اللَّهُ-.

10- العلامة **عبد الفتاح عاشور** –حَفِظَهُ اللَّهُ-.

تلامذته:

انتفع بعلمه خلق كثير من طلبة الجامعة الإسلامية من شتَّى أنْحاء العالَم.

جهوده العلمية:

1- عين إمامًا وخطيبًا بِمديرية الأوقاف بالقاهرة.

2- أعير واعظًا عاما لِهيئة الأوقاف الليبية.

وإعارته هذه للقوات المسلحة الليبية.

وكانت له مواقف يُحمد عليها.

3- خطيب ومحاضر بمسجد الملك إدريس بطرابلس.

4- درس مادتي التوحيد والتفسير بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

5- عضو باللجان المختصة في وضع مناهج التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية.

6- أستاذ التفسير بشعبة الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية.

7- ناقش وأشرف على أكثر من ثلاثين رسالة ماجستير ودكتوراه.

جهوده الدعوية:

- قام رَحِمَهُ اللهُ بمساعدة شيخه الهراس في نشر دعوة التوحيد بربوع طنطا وما جاورها من مدن وقرى، وواجه الاثنان في سبيل ذلك المصاعب والمتاعب وتعرضا للضرب.

- عمل وكيل لفرع أنصار السنة بطنطا في فترة رئاسة الشيخ الهراس -رَحِمَهُ اللهُ-.

- عضوًا بمجلس إدارة المركز العام بأنصار السنة في زمن رئاسة الشيخ الوكيل -رَحِمَهُ اللهُ-.

- أسس مع شيخه الهراس جمعية الدعوة الإسلامية بطنطا.

- كما عين رَحِمَهُ اللهُ عضوًا بهيئة التوعية الإسلامية بالمملكة السعودية.

- كما كان يدرس بالمسجد النبوي.

- عمل رَحِمَهُ اللهُ عدة سنوات إمامًا وخطيبًا في أوائل السبعينيات بليبيا.

- عين رَحِمَهُ اللهُ بوزارة الأوقاف المصرية، وقد عين بمسجد فيه قبر بمدينة القاهرة، فلم يصلي في المسجد حتى أقنع الناس بحرمة الصلاة بالمساجد التي بها قبور، وأخرج القبر خارج المسجد -جزاه الله خيرا-.

- قدم الكثير من البرامج الإذاعية بالمملكة السعودية، منها:

1- برنامج الإسلام دين ودنيا -الإذاعة العامة- قدم منه (225) حلقة.

2- برنامج تذكرة وذكرى -إذاعة القرآن الكريم- قدم خلالها (256) حلقة.

- شارك رَحِمَهُ اللهُ في العديد من البرامج والندوات.

- كما كان رَحِمَهُ اللهُ له العديد من المناظرات مع أصحاب الملل الأخرى، والتيارات المنحرفة.

يعد الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ - من أكبر المصادر عن ترجمة العلامة الهراس -رحمهما الله-.

مؤلفاته:

1- من قضايا الوحي والتتريل -رسالة ماجستير-.

2- النص القرآني بين التفسير والتأويل-رسالة دكتوراه-.

3- تحديد النسل بين الأديان والعلم والمجتمع بتقديم العلامة الهراس –رحمه الله-.

4- شعبان ونصف شعبان بين الحقائق الإسلامية والأباطيل الإسرائيلية.

5- لا تتخذوا القبور مساجد ولا تجعلوا الأضرحة معابد بتقديم العلامة الهراس –رحمه الله -.

6- الحياة الزوجية سكن وسكينة.

7- سموم مستطابة وأساطير مستطابة.

كتب العديد من المقالات بمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ومجلة الهدي النبوي، ومجلة الإخلاص، مجلة التوحيد.

وله العديد من المؤلفات والمحاضرات والخطب يسر الله نشرها.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللهُ في ظهر يوم الخميس 29 شوال 1418هـ، الموافق 26 فبراير 1998م وشيعت جنازته يوم الجمعة أول ذي القعدة 1418هـ.

نسأل الله عز وجل أن يرحمه وأن يغفر له وأن يبارك في عقبه وأن يصلح ذريته.

ثناء العلماء عليه:

روى لي العديد من قدامى أنصار السنة بمصر أن العلامة السلفي مُحَمَّد خليل الهراس كان يعد الشيخ عبد الفتاح سلامة امتداد له، والخليفة من بعده في حمل راية الدفاع عن السنة، فقدمه العلامة الهراس في كثير من المحافل واللقاءات والندوات.

حتى قيل أن الشيخ الهراس في مرض موته قال له: ها أنا ذا قرير العين بمن يحمل الراية، ويكمل المسيرة بعدي.

سألت عنه والدنا الشيخ **حسن بن عبد الوهاب البنا** -حَفِظَهُ اللهُ-:

فقال لي: كانت بيننا صحبة، وكان سلفيًّا -رَحِمَهُ اللهُ-.

وقد وعدني والدنا الشيخ حسن بكتابة كلمة عن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

وبعد فهذا قليل من كثير، وهو نزر يسير من سيرة ذلك الشيخ الجليل، نذكرها لكي يكون فيها العبرة والإفادة، نتعرف من خلالها على علمائنا رحمهم الله.

وصلى الله وسلم على صفيه وخليله مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم.

إعداد

مُحَمَّد بن عوض بن مُحَمَّد بن عبد الغني المصري

[تمهيد]

نشرت إحدى المجلات الإسلامية مقالاً بعنوان: «**الحب الإلهي في الشعر النسائي المعاصر**».

وحرصًا منَّا على عرض حقائق الإسلام المشرقة الهادية عرضًا يلتزم منهج الكتاب وهدي السنة المطهرة، هادفًا إلى تنقية أفكار مما علق بها من خرافات وأوهام تسيء إلى حقائق الإسلام، وتشوه جلاله الخالدة.

ونظرًا لما وجدته في المقال من **(تهويمات شعرية وفلسفة صوفية)** يجب عرضهما على الميزان الذي لا يبخس ولا يحيف، وهذا الميزان هو الوحي المنزل في نبعيه الصافيين: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى اللّه عليه وسلم، فإن قضى هذا الميزان الأقوم بأمر فقضاؤه هو القضاء العدل، وإن حكم بحكم فحكمه هو كلمة الفصل.

[الفناء في ذات الله!]

بدأ الكاتب حديثه: **(عن رابعة العدوية)** فقال: «**أقبلت رابعة العدوية على اللّه وأحبته، والتمست القرب منه، والفناء في ذاته، والأنس بمطالعة جمالها الأزلي**» أ.هـ..

هذه أول فقرة من مقاله، نبدأ بعدها المناقشة متسائلين:

ما هو الفناء في ذات الله؟! هل ورد هذا التعبير في القرآن الكريم؟

وهل حث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على الفناء في ذات الله تعالى؟! وأين هذا النص الذي يحضنا على هذا الفناء؟

وما معنى كلمة الفناء في لغة العرب؟ وما دلالة الحرف (في) في هذا السياق؟!!.

وما معنى الفناء كمصطلح صوفي دخيل على الإسلام؟.

أسئلةٌ كثيرةٌ، وإجاباتها أكثر وأكثر...

إنّ كلمة الفناء تدل في لغة العرب على العدم والهـــلاك، أو مقاربـــة العـــدم والهلاك، ولذلك تطلق كلمة الفاني على الشيخ الكبير الذي قارب الموت.

و لم تستعمل كلمة الفناء في القرآن الكريم إلا في الدلالة على هـــلاك الـــشيء وزواله، كما دلّ على ذلك قوله تعالى: **(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّـــكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَام)** [الرحمن: 26، 27]، ويؤيد تفسير الفناء بالهلاك قوله تعـــالى: **(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه)** [القصص: 88].

[جمال الذات الإلهية الأزلي]

وأما قوله: «والأنس بمطالعة جمالها الأزلي».

فلنا أن نسأل الكاتب:

ما معنى هذا الكلام؟ هل تريد رابعة أن تأنس بمطالعة **(جمال الذات الإلهية الأزلي)** في الدنيا أم في الآخرة؟.

إننا إذا فسرنا هذه العبارة بمعنى الرغبة في مشاهدة ذات اللّه العلية في الدنيا، فإنّ رابعة بهذا المطلب تكون قد طلبت أمرا لم يجب إليه كليم الله موسى عليه السلام، كما دل على ذلك قول الله تعالى: **(... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا...)** [الأعراف: 143].

وإن كان المقصود بهذه العبارة رؤية اللهِ في الآخرة، فهذا أمرٌ قد وعد اللّه به المؤمنين من عباده في قوله تعالى: **(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)** [القيامة: 22،23]، وفي قوله سبحانه: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ..)** [يونس: 26]، والحسنى هي الجنة، والزيادة هي رؤية وجه الله الكريم، كما ورد ذلك عن كثير من السلف في تفسير هذه الآية.

على أن: «**الأنس بمطالعة الجمال الأزلي**» تعبيرٌ لا يسلم من المآخذ، مع إيماننا بأن الله سبحانه متصف بالجمال على النحو اللائق بذاته العلي

[مذهب رابعة العدوية]

ثم قال الكاتب: «وجعلت من حبها لذاته مذهبا لها في حياتها الروحية تأخذ به نفسها أخذًا، وتروضها عليها».

وهذا التعبير يدل على أن لها مذهبها في «**الحب الإلهي**»، وأن لغيرها من الناس مذاهب، فما هو مذهبها؟

وما هي مذاهب الناس في هذا الحب؟

وما الفرق بين مذهبها ومذاهب الناس؟

أسئلة لم يتعرض لها الكاتب للإجابة عليها، مع أنه أقام بنيان بحثه على أساس من «**مذهب رابعة**» الذي لم يوضحه، ربما لظنه أنه أشهر من أن يعرف، والسؤال الذي يرد حتما هنا هو:

ما هو منهج الوحي الذي أنزله اللّه هدى للناس في هذه القضية؟

وهل حب اللّه جَلَّ جلاله مسألةٌ خاضعَةٌ للمذاهب والأهواء؟

وهل الدين هو مذاهب الناس وآراؤهم وأهواؤهم؟

أمْ هو وحي الله الذي أنزله بيانًا وشفاء وهدايةٌ ونورًا كما قال جل ذكره: **(وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...)** [الشورى: 52، 53].

لا شك أنّ دين اللّه هو وَحْيه المترل على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وليس أهواء الناس.

[مذهب رابعة في الحب الإلهي]

ونعود بعد هذا إلى إيضاح القول في المسألة الرئيسية في هذا الموضوع وهي:

«**مذهب رابعة في الحب الإلهي**» هذا المذهب الذي نسجَ على منواله الناسجون، أو «**تأثروا**» به على حد تعبير «**الدكتور**» كاتِب المقال، وهذا المذهب يعبر عنه قولها:

كلهم يعبدوك من خوف نار ** ويرون النجاة حظًّا جزيلا

أو ليسكنوا الجنان ليحظوا ** بفردوس ويشربوا سلسبيلا.

هذا هو مذهب الناس في نظرها، أما مذهبها هي فهو كما عبرت عنه:... أنا لا أبتغي بربي بديلا.

أو كما روي عنها أيضًا: «**إن كنت أعبدك خوفًا من نارك فاحرقني بها، وإن كنت أعبدك طمعًا في جنتك فاحرمني منها**»[1].

---

[1] قال الشيخ الإمام **محمد ناصر الدين الألباني** رحمه الله في معرض جواب له عن سؤال حول رابعة العدوية [سلسلة الهدى والنور؛ شريط:]: «ومن أشهر ما يروى عنها -بغض النظر هل هذا الذي يروى عنها صحيح أو لا؛ لأنه لا يمكن الحكم بصحة كل ما يروى بالنسبة لأمثال هذه المرأة الصوفية وغيرها- مما يروى عنها أنها كانت تقول في منجاتها لربها: «ربي ما عبدتك طمعًا في جنتك ولا خوفًا من نارك وإنما عبدتك لأنك تستحق العبادة».

وهذا الكلام شعري -يعني جميل- يأخذ بقلوب من لا يعلمون ما يجوز وما لا يجوز في الإسلام.

فهي تقول في مناجاتها لربها: «**ما عبدتك طمعًا في جنتك ولا خوفًا من نارك**».

وهذا لا يمكن أن يصدر من مسلم يخشى الله لأن المسلم المؤمن بالله حق الإيمان لا يكون إلا وقد آمن بكل صفات الله عز وجل كاملة التي وصف بها نفسه في كتابه أو في سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن ذلك: أن الله ذو حظ عظيم، ومن ذلك: **(أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)**، ومن عرف الله بهاتين الصفتين مع الصفات الأخرى بأنه منتقم جبار وبأنه كريم إلى آخر ما هنالك لا يمكن أن نتصور هذا المؤمن حينما يعبد الله لا يعبده طمعا في فضله ولا خوفا من عذابه، هذا مستحيل.

لذلك جاء في الكتاب -القرءان الكريم- أن الله عز وجل وصف بعض عباده المصطفين الأخيار بقوله عز وجل: **(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا)** **(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا)** فيما عنده من النعيم **(وَرَهَبًا)** خوفا مما عنده من الجحيم هذا وصفه الله رب العالمين أنه من الأخيار فكيف نتصور بامرأة صالحة أو المفروض أن تكون صالحة وهي تقول: ما عبدتك طمعًا في جنتك ولا خوفا من نارك؟

علما بأن في الجنة أكبر النعم، وهي رؤية الله عز وجل فمن الذي لا يطمع أن يرى الله عز وجل في الجنة؟

هذا مما يروى عنها في الكتب.اهـ.

وقد سئل الشيخ العلامة **أحمد بن يحيى النجمي** رحمه الله تعالى سؤالا من ضمنه السؤال عن هذه اللفظة فأجاب عنها بقوله [فتح الرب الودود في الفتاوى والرسائل والردود فتوى رقم [1] – [1/3-6] بتصرف يسير]: «وأما قوله: «**وأنه ينبغي أن يعبد الله لا خوفاً من ناره ولا شوقاً إلى جنته**».

فهذه العبارة من عبارات الصوفية وتنسب هذه العبارة إلى رابعة العدوية وأخذها الصوفية من بعدها بدون تعقل.

فمن زعم أنه يعبد الله حبًّا له فقط لا يعبده خوفًا من ناره ولا شوقًا إلى جنته فقد زعم أنه خير من الأنبياء الذين وصفهم الله بقوله: **(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)**.

وقال عن إبراهيم خليله عليه السلام: **(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)** فهذا نبي الله وخليله، وأحد الذين اصطفاهم من خلقه يسأل الله أن يجعله من ورثة جنة النعيم وأن يعيذه من خزي يوم القيامة.

فمن زعم أنه لا يعبد الله طمعًا في جنته ولا خوفًا من عذابه فقد زعم أنه أفضل من الأنبياء فهو كاذب في هذا الزعم فما من أحد من الناس إلا وهو يحب الجنة ويخاف من النار، إلا أن يكون لا يؤمن بهما ولكن الغرور والادعاءات الباطلة استحوذت عليهم، فمن ذا الذي لا يخاف من النار وهو بشر مخلوق من لحم ودم وجلد وعصب وعظام!! لو عرض على نار الدنيا لخافها فكيف إذا كانت نار جنهم التي ضوعفت حرارتها على نار الدنيا بتسعة وستين ضعفًا كلهن مثل حرها، نار وقودها الناس والحجارة!!

فمن ادعى أنه لا يخاف من نار تذيب الصخور فهو إما مجنون أو كاذب أو مكذب.

وأخيرًا إنه ليؤسفني أن أفكار الصوفية تنتشر بين الشباب، وما ذلك إلا بسبب اعتناق بعضهم لبعض الدعوات التي يفتخر أصحابها بالانتماء إلى النحلة الصوفية.

عباد الله إن الصوفية سم زعاف تقدم للشباب في شربة من عسل بدء بالأناشيد، والأوراد، والكرامات، ونهاية بوحدة الوجود التي تنتهي إليها كل الصوفية، فاحذروا من قبول شيء من بدعهم فإنها سم قاتل.

وكما روي عنها أيضا:

أحبك حبين حبَّ الهوى ** وحبًا لأنك أهل لذاك.

فأما الذي هو حب الهوى ** فشغلني بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له ** فكشفك لي الحجب حتما أراك

تأمل: إن اللّه -تعالى علوًا كبيرًا- أهل لحب رابعة!! لماذا؟ لأنه سبحانه كشف لها الحجب التي لم تكشف لموسى عليه السلام!! أو لم تزعم أنها كشفتْ لها الحجبْ حتى رأت الذات العلية!! وليس هذا أدعاءً منا عليها، وإنما هذا ما تقوله الأبيات السابقة.

فهذه هي وجازة القول في مذهب «**رابعة**» الذي فتن به المفتونون، وهو يقوم على دعوى أن عبادة اللّه عِشقًا له خيرٌ من عبادة الذين يعبدون ربهم خوفًا وطمعًا، ونظرًا لأن هذه الدعوى فتنة خطيرةٌ تردَّى فيها من لم يعتصم بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، فإن واجب البيان يملي علينا أن نضع هذه الدعوى في ميزان الكتاب والسنة، لنرى مبلغها من العلم، ووزنها من اليقين.

وبالله التوفيق.

[أمر الله لعباده أن يعبدوه خوفا وطمعا، ومدحه لذلك]

إن رابعة تزدري عبادة الذين يعبدون ربهم خوفًا وطمعًا، فهل نسمع إلى قول رابعة؟ أم نستمع إلى حكم اللّه الحكيم العليم؟

- بدهي أنّ الجواب هو: إن حكم اللّه تدين له القلوب، وتعنوا له الوجوه ولنسمع إلى وصف الله جل ذكره لعبادة هؤلاء الخائفين من جلاله، الطامعين في جنانه، وهو في قوله سبحانه: **(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فلا نفسٌ ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون)** [السجدة: 15- 17].

وأمر ربنا سبحانه عباده أن يدعوه خوفًا وطمعًا، وبين أن الدعاء بهذه الصورة سبيل إلى رحمته، وسببٌ إلى جنته فقال جل ذكره: **(وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)** [الأعراف: 56]، وتأمل كيف رتبت الآية الكريمة الأمر بدعاء الله، بعد النهي عن الإفساد في الأرض.

فهذا ترتيب يبين لنا أن الأرض إذا خلت من عباد الله الذين يخشونه بالغيب امتلأت بالمفسدين في الأرض.

[مراتب أهل الخوف من الله جل وعلا]

وقد مدح الله أهل الخوف منه جل جلاله في غير موضع من كتابه واصفًا لهم بصفات الخير -على النحو التالي:-

أولاً: أهل الخوف هم أهل الاستجابة للحق:

وقد بين ذلك قول الله تعالى: (**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ**)]يس: 11].

وقال سبحانه: (**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**) [ق: 45].

ثانيًا: أهل الخوف هم الذين يتقون ربهم:

قال تعالى: (**وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) [الأنعام: 51].

ثالثا: أهل الخوف هم عمار المساجد:

ودليل ذلك قوله تعالى: (**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ...**) [النور: 36- 38].

رابعًا: أهل الخوف هم الذين يتعظون بما وقع للمكذبين:

وقد بين هذه المسألة قوله سبحانه: (**وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ**) [الذاريات: 37].

خامسًا: أهل الخوف هم أهل البر والإحسان:

وفي هذا المعنى ورد قول الله جل ذكره: **(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا)** [الإنسان: 7-11].

سادسًا: الذين يخافون مقام ربهم لهم جنة المأوى:

لم يمدح اللّه الخائفين من جلاله فقط بل وعدهم بجزيل الأجر، وجميل الثواب، كما دل على ذلك قوله تعالى: **(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)** [النازعات: 40].

سابعًا: الخائفون من مقام ربهم لهم ثواب الضعف:

و لم يعدهم الله الجنة فقط بل وعدهم أن يتبوؤا من الجنة في مترلين وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: **(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)** [الرحمن: 46].

ثامنًا: الخائفون من اللّه هم أهل التمكين في الأرض:

كما دل عل ذلك قوله تعالى: **(... فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)** [إبراهيم: 13،14].

تاسعًا: مقام الخوف من اللّه هو من مقامات الأنبياء:

قد يرد على خاطر بعض القراء أن الخوف من الله هو مرتبة من مراتب عوام المؤمنين، وأما خواصهم فليست هذه مرتبتهم، بل لهم مرتبة هي أسمى من ذلك، وهذا ظن مبتوت الوشائج بالحق، فلا مقام أسمى من مقام الخوف من رب العالمين،

إذ هو مقام سادات الموحدين وكرام النبيين، ولنسمع في ذلك إلى قول رب العالمين: **(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)** [الأنبياء: 89-90]، ومعلومٌ أنّ الرهب هو الخوف.

عاشرًا: الذين لا يخافون من الواحد القهار هم الأشرارُ الفجار:

وكما بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى أن الخوفَ من جلاله وعقابه هو صفة الأبرار الأخيار، بَيَّنَ أنّ عَدَمَ الخوف هو صفة الأشرار الفجار، فقال سبحانه: **(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا)** [الإسراء: 60]. وقال سبحانه في صفة الكافرين: **(كَلا بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ)** [المدثر:53].

الرغب والرهب دعامتا العبادة

وربما قال قائل قد أكثرتم الحديث عن الرهب، وصورتم العبادة خوفًا محضًا، فهل على الخوف وحده ينهض بناء العبادة؟!

ونقول له: ما إلى هذا قصدنا، ولا إلى هذا الفهم توجهنا، فإن الرغب والرهب دعامتان: عليهما يقيم العابدُ بناء عبادته، فإذا كان العابد راهبًا لا يرغب: فهو إلى الخوارج أقرب، فإن الخوارج «**الحرورية**» جعلوا الخوف دينهم، والرهب ديدنهم فخافوا وأخافوا، وفزعوا وأفزعوا، وإن العابد إذا جعل دينه رغبة فقط مبرأة من الرهب، فقد أخطأ الطريق، وسلك سبيلا غير سبيل الحق، وإذا كنا نلتمس دائمًا وأبدًا السبيل الحسنى عند سيد الأنبياء صلى اللّه عليه وسلم، فلنعلم أنّ اللّه تبارك وتعالى قد مدح إمام أنبيائه، بالخوف منه جل ذكره، وقد دل على ذلك قول اللّه تعالى: (**... قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) [الأنعام: 14،15].

ولنستمع أيضًا متدبرين قول الله جل ذكره: (**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) [يونس:15].

وحتى تزداد القضية وضوحًا فلنتدبر قول العلي الحكيم الذي أمر به نبيه الكريم عليه الصلاة والتسليم: (**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) [الزمر:11- 13].

فهذه الآيات البينات دلتنا على أن النبي الكريم كان أخوف الناس أجمعين للّـــه العظيم، بل لقد وصَفَ صلى اللّه عليه وسلم نفسه بذلك في حديثه للذين أرادوا أن يتخذوا الرهبانية منهجًا حين قال لهم: «**إني لأتقاكم للّه، وأخوفكم لـــه**»[1] وفي رواية «**إني لأرجو أن أكون أخشاكم للّه، وأعلمكم بما أتقي**»[2].

ولنسمع إلى رَغَبِهِ صلى الله عليه وسلم إلى ربه حتى تكتمل الحقيقـــة أمامنـــا، ذلكم أن الله قد مَدح نبيه الكريمَ بالرغب إليه والرهب منه، وما دمنا قـــد أســـلفنا حديثَ الرهب فلنصْغِ إلى حديث الرغب، وذلك في قول اللّه تعالى أمرًا نبيه صـــلى الله عليه وسلم: (**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**) [الانشراح: 7،8].

---

(1) رواه مسلم (1108)، وغيره بلفظ: «**أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**» و لم أجده بهذه اللفظة.

(2) رواه مسلم (1110).

والمؤمنون أيضًا ممدوحون بالرغبة إلى اللّه

وكما أمر الله نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم بالرغبة إليه، وامتدح عبده زكريا وله عليهم السلام بهذه الصفة الكريمة، فكذلك أثنى اللّه على التائبين المـــذكورين في سورة القلم بهذه الصفةِ، وذلك في قوله سبحانه: **(عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَـــا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ)** [القلم: 32].

كما بين سبحانه أن هذه الصفة يجب أن يتصف بها من أراد أن يسلك ســـبيل المهتدين الراشدين، وذلك ما ورد في قول اللّه سبحانه وتعالى: **(... وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)** [التوبة: 59].

[معنى الرغب في لغة العرب]

- ولسائلٍ أن يسأله فيقول: حدثتنا عن الرغب، فهلا عرفتنا بمعناه في لغة العرب؟

- ونقول له هذا سؤال يسير الطلب، فالرغب والرغبى -بفتح الراء أو ضمها- والرغباء والرغبة -بفتح الراء أو ضمها أيضا- والرغبوت: كلماتٌ متقاربات المعنى تدل على توسع في الإرادة، وعلى حرص على نيل مطلوب، وقصارى القول إن الرغبة إلى الله سَعي إلى عطائه، وحرْصٌ على رضائه، وضراعة إليه لنيل جنته.

لكل شيء قلبَ، والحب قلب العبادة

وقد يقول قائلٌ: أغفلتم جانب الحب، وأهملتم شأنه ونقول له: ما أغفلنا ولا قصرنا، فإذا كنا قد ذكرنا من قبل أنَّ الرغبَ والرهب دعامتا العبادة، فلنذكر أن الحبَّ قلبها، وأن العبادة بلا حب كالجسد بلا قلب، ومن الناس من هدِيَ في أمر الحب إلى صراط مستقيم، ومنهم من ضلّ الطريق القويمَ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ذلكم أن حب الله نوعٌ من العبادة، ولهذا بين لنا ربنا سبحانه أن حب المؤمنين له تعالى: هو آية الإيمان، وأن حب المشركين لآلهتهم هو غاية الكفران، وذلك في قوله جل ذكره: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)** [البقرة: 65].

والحب لله طاعة لأوامره، واجتنابٌ لنواهيه، وإتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم، وإقتداء بهديه وقد أمر ربنا سبحانه رسوله الكريم أن يعلمنا هذا الهدى القويم، وذلك في قوله سبحانه: **(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)** [آل عمران: 31]، وقد بينت هذه الآية الكريمة أنّ أهل الطاعة هم أهل المحبة وأهل المغفرة، ثم بينت الآية الكريمة التالية لها أن أهل المعصية هم أهل الكراهية، وهذه الآية هي قوله تعالى: **(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)** [آل عمران: 32].

هذا بعض القول، في موضوع يحتاج إلى مزيد من القول، حتى تتضح الحقائق ناصعة، وتولي الشبهات مدبرة.

نسأل اللّه جل ذكره: أن يجعل قولنا سدادًا، وعملنا رشادًا. وتوفيق الله خير الأرزاق.